

اليهود في منطقة بشار من خلال المصادر المحلية.

د. محمد برشان*

عرفت منطقة بشار خلال فترة نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تدفق مجموعات من العائلات اليهودية الوافدة من إقليمي توات وتافيلالت، واستوطنت مراكز عبور القوافل التجارية والحجّية على غرار قصر القنادسة، وقصر اقلي بوادي الساورة، ولا نكاد نعرف إلا القليل عن عمليات الاستيطان الأولى ولا لأصولهم العرقية. ولعلّ حاجة المجتمع المحلي بمنطقة بشار إلى الدور الاقتصادي كانت مشجعة على حمايتهم وضمان أمنهم واستمرار وجودهم. يعتقد جاكوب أولاي- Jacob Oriel بأنّ اليهود حلّوا بمنطقة بشار والقنادسة وعموم بلاد الصحراء منذ العصور القديمة. وفي نفس الوقت يربط فريق آخر من الباحثين منهم الدكتور سيار Ceard أصولهم الأولى بحجرة يهود تخطيط بإقليم توات خلال القرن الخامس عشرة عقب الثورة التي شنها الشيخ عبد الكريم المغيلي على يهود توات، وكان الراهب شلومو باريريرو Chloumo Barbarero- الذي اعتبر الزعيم الروحي للجالية اليهودية بتمنطيط من أبرز اليهود النازحين إلى القنادسة سنة 1492 فرارا بجلودهم من تلك الثورة.⁽¹⁾

* جامعة بشار

يشير عبد الرحمان اليعقوبي في مخطوطه فتح المنان إلى أن عدد أفراد الجالية اليهودية التي تواجدت بالقنادسة خلال القرن الثامن عشر الميلادي لم يزد عن ثلاثة بيوت مجتمعة في جهة محددة من القصر.⁽²⁾ فإذا اتخذنا ثمانية أفراد كمتوسط للعائلة الواحدة باعتبار أن المرأة اليهودية بمنطقة بشار تنفرد عن غيرها من النساء اليهوديات بأنها امرأة ولود تنجب بين ستة إلى تسعة أطفال سعيا منها إلى إنجاب أكبر عدد من الأطفال حتى تساهم في الإكثار من نسل اليهود وزيادة تعدادهم.⁽³⁾ وهي الصفة التي اكتسبتها من معاشرتها الطويلة للنساء المسلمات بالصحراء سواء كان ذلك بإقليم تمنطيط بأدرار، أو إقليم تافيلالت بالمغرب الأقصى. فإن مجموع اليهود بالقنادسة يصبح 24 نسمة.

كما أنّ ظاهرة الطلاق تكاد تكون منعدمة عند يهود بشار، وكان كل من يتجرأ على تطليق زوجته يجد مقاطعة من جميع أفراد المجتمع اليهودي، كما أن نشوب أي خلاف بين الزوجين يتم تطويقه، واحتواؤه قبل استفحال أمره خلال معالجة أسبابه من قبل أعيان اليهود، وتحت إمارة الراهب الأكبر.⁽⁴⁾

على أن هذا الرقم لم يلبث أن عرف تطورا وتزايدا مع التحولات الجذرية التي عرفتتها منطقة بشار عموما وقصر القنادسة بشكل خاص على جميع الأصعدة، خاصة على صعيدي استقرار الأوضاع الأمنية والرواج التجاري والاقتصادي اللذين ترتبط عليهما حياة اليهود، وهو ما أكده الضابطان دو لامارتي- ولاكروا (N), De laMartinier -Lacroix عندما أشارا إلى أن

اليهود في القنادسة تمكنوا مع مرور الوقت من إنشاء حي مستقل داخل القصر⁽⁵⁾.

لقد كان انتعاش الحركة التجارية ورواجها بمناطق نفوذ الزاوية الزيانية كان من العوامل التي ساهمت في إغراء اليهود وشجعتهم على الهجرة من إقليم تافيلالت إلى منطقة بشار، خصوصا وأنّ الزاوية الزيانية أخذت على عاتقها مسؤولية حماية القوافل العابرة للصحراء من اللصوص وقطاع الطرق، إذ كان التجار لا يقدمون على المغامرة بأموالهم، وتجارتهم بالتوغل في إقليمي توات وقورارة، والواحات البعيدة في فيافي الصحراء إلا بعد اتخاذ الزاوية الزيانية كحامية ومرشدة لقوافلهم⁽⁶⁾.

شكل اليهود أقلية دينية تركزت بالأساس في القصور التالية: بشار، القنادسة، إيقللي، تلبالة، ومعظم تلك القصور شكلت خلال العصور الحديثة نقطة عبور مهمة بالنسبة للمراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال إفريقيا والسودان، حيث أشار الضابطان دو لامارتي ولكروا De la Martiniere – Lacroix, (N) إلى أنه في حدود عام 1896 كان يقطن قصر إيقللي حوالي أربع إلى خمس عائلات يهودية تحترف الحدادة وصياغة الحلبي والمجوهرات، وكانوا قد قدموا إلى هذا القصر من إقليم تافيلالت المغربي، وكانت لهم مقبرة خاصة بهم فوق جبل اليهودي بإيقللي⁽⁷⁾.

على الرغم من أن اليهود شكلوا أقلية دينية في القصور التي كانوا يتواجدون فيها إلا أنهم ظلوا ينعمون بالحماية، حيث تُصان أملاكهم وتُراعى مصالحهم الاقتصادية كسائر أفراد المجتمع المحلي، وتمتعوا بالحقوق الكاملة التي كفلها لهم

الشرع الإسلامي كأهل ذمة. فتلقوا تبعاً لذلك الحماية الكاملة لأملأهم وأرزاقهم، وتحصلوا على حرية تامة في ممارسة عباداتهم وأداء شعائهم الدينية، وكان لهم ولي مسلم يحميهم ويقوم بدور الوساطة بينهم وبين المسلمين. كما كانت لهم مقبرة خاصة بهم تقع في الضفة اليسرى لوادي بشار على بعد 4 كلم من المدينة، حيث وجدت قبور حاخاماتهم المشهورة كقبر الراهب سلومو Salomon ، بريريرو "Barberero" وابنه إسحاق Isaac.⁽⁸⁾

ومع بداية القرن العشرين أصبحت حياتهم الدينية أكثر تنظيماً بعدما تجمعوا تحت إمارة الراهب بني طاح والراهب أبراهام دهان، ومارسوا مشاعرهم الدينية في أديرة خاصة بهم، عُرفت بـ: مصلى - M ssa، وأطلق عليها اليهود كذلك اسم سنوغة أو سنورة، وهي كلمة من أصل برتغالي "Synogaga". وهو ما يدعم الرأي الذي يُرجع أصولهم إلى الهجرة الوافدة من الأندلس باتجاه الصحراء.

إن الخدمات التي كانت تقدمها الزاوية الزبانية والمتمثلة في فض النزاعات بين الأطراف المتنازعة كانت إنسانية، إذ لم تكن تقتصر على المسلمين فحسب، بل شملت كذلك اليهود داخل القصور التي كانوا ينتمون إليها في المنطقة كأقلية دينية تمتعت بالحماية والأمان في نطاق ما يكفله الشرع الإسلامي لأهل الذمة، في الوقت الذي كانوا في أوروبا عرضة للاضطهاد المسيحي ومحرومين من أبسط الحقوق.⁽⁹⁾ ومن ثم نستطيع القول بأن هجرة يهود تافيلالت إلى منطقة بشار لم

تكن من أجل البحث عن وضعية اقتصادية وتجارية أحسن فحسب، بل من أجل البحث كذلك على وضعية أمنية مستقرة تسهل اندماجهم الاجتماعي.

وهنا لابد من الإشارة إلى عهد الأمان الذي تحصل عليه اليهود في قصر القنادسة من شيخ الزاوية الزبانية سيدي محمد بن بوزيان، حيث يذكر عبد الرحمان اليعقوبي في مخطوطه بأن نفرا من اليهود من ساكنة القنادسة تعرضوا للسرقة من قبل مجموعة من اللصوص الذين نهبوا منهم متاعا... فشكوا ذلك إلى الشيخ أبي زيان، فحلف يميناً بالله أن يرجع اللصوص ما سرقوه إليهم وإلا رحل من القنادسة وتركها، فجاء الناس في الطلب فوجدوا المسروق بالجل. وهذا نص ما ورد في المخطوط: "...وقد شاهدته مرة كان في دشرة الزاوية ذميّان أو ثلاثة ينسبون لجنابه بالحماية، وقد سكنوا، فبينما هم ذات يوم إذ دخل عليهم اللصوص وأخذوا منهم ما يزعمون أنه توراة من الكتب وحرير وكتان مما يجعلونه نصب أو غير ذلك، فلما أصبح الله بخير الصباح إذا هم بباب دار الزاوية متغوثن: "يا سيدي محمد بن أبي زيان دخل علينا اللصوص وأخذوا كتبنا". فوجد الشيخ على ذلك وجدا كثيرا فقال لي: "يا أخي والله إن لم يردوا لليهود متاعهم الذي أخذوه منهم لا أجلس في هذه البلدة"، فأخذ الناس في طلب الجد حتى استخرجوه من الجبل وردّوه لهم.

فقال لهم الشيخ: أرضيتم؟

فقالوا له: يا سيدي أليس لنا حق على المسلمين.

فقال لهم: نعم لكم ذمة الله لا ينقصها أحد إلا إن بدلتهم وغيرتم.

فقالوا له يا سيدي لا نغير ولا نبدل، فقال لهم: طلبنا من الله هدايتكم والدخول في الإسلام.⁽¹⁰⁾

ولم يكن بإمكان أي شخص أن ينازع في دور الوساطة الذي يقوم به شيوخ الزاوية حتى ولو ارتبط الأمر في نزاع مع غير المسلمين، وإزاء هذه الحماية التي وجدها اليهود من قبل شيوخ الزاوية الزبانية، فإنها أضحت بحكم النفوذ الروحي الذي حازته الزاوية ملزمة للأتباع في المناطق التي تقع تحت وصايتها، كما أنه لم تكن بحاجة ماسة إلى توفير الحماية من لدن أي شخص أو عائلة ما دامت الزاوية تكفلها وتصونها.

وهذا ما نستشفه من خلال الرسالة التي بعث بها شيخ الزاوية القندوسية سيدي أبومدين بن محمد بن عبد الله (1242هـ/1826م-1268هـ/1851م) مع أحد أقربائه إلى أتباع الزاوية بمنطقة دبدو بوادي ملوية بالمغرب الأقصى، يبلغهم من خلالها بأن اليهودي الذمي المسمى الحزان إبراهيم ولد الهرهار صار في ذمة وحرمة الزاوية القندوسية، فلا يُعتدى عليه، وله حرمة أهل الذمة، تجدر الإشارة إلى أن دبدو تضم عبر خزاناتها أضخم المخطوطات المرتبطة بتاريخ اليهود في العالم. وهذا نص الرسالة: "الحمد لله جماعة أهل دبدو اعلموا بأننا لذمي الحزان إبراهيم ولد الهرهار لاذ بنا، ودخل تحت حرمتنا وحرمة الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان وقبلناه وهو يهودينا ومن ضره وتعدى عليه فالله يتولاه ودعوة الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان تتبعه وكذلك الإخوان والسلام، ومن استحرمهم على وجه الشيخ فالله يرزقه عز الدنيا والآخرة.

عبد ربه تعالى الماحي بن أحمد البدوي بن أبي زيان، وعبد ربه ولد الشيخ محمد البدر بن أبي زيان. وقد وقفنا لما ذكر أعلاه، سيدي أبي مدين وولد أخيه سيدي محمد المصطفى أبناء الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان كان الله لهم آمين." (11).

على الرغم من نظرة الازدراء التي كان يلاقيها اليهود في قصور بشار على أن ذلك لم يبلغ درجة الاعتداء عليهم من جهة، وانطوائهم على أنفسهم في أحياء خاصة بهم تدعى بـ"الملاح" استطاعوا من خلالها المحافظة على هويتهم اليهودية، ونقائهم العرقي واستقلالهم الاجتماعي في إطار المصاهرة والزواج فيما بينهم من جهة أخرى، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التفاعل والاندماج في الحياة العامة للمجتمع المسلم خاصة في شقيها التجاري والاجتماعي.

إذ لم يختلف لباس اليهود عن لباس العرب بحكم احتكاكهم ومحركاتهم للقبائل العربية والأمازيغية عبر المراحل التاريخية التي سبقت هجرتهم إلى منطقة بشار بوسائل مختلفة. وكانت التجارة القناة الرئيسية لمعالم ذلك الاحتكاك خاصة بإقليمي توات وتافيلالت، ومن تلك الألبسة التي عادة ما ظهر بها اليهود نذكر: الشاشية، القندورة، على أن الشاشية تكون في حالات عدة ملفوفة بعمامة سوداء في إشارة إلى الحداد عند بعض اليهود على القدس أو تمنطيط. كما قد يُفسر تشبه اليهود في لباسهم بالعرب إلى عدم التمييز لئلا يصبحوا عُرضة للاعتداء المباشر من قبل المسلمين.

على الصعيد الاقتصادي فقد احتكر اليهود في منطقة بشار العديد من المهن والحرف التقليدية كالدباغة والحداة وغيرها من الحرف التي كان أفراد المجتمع المحلي يأنف من امتهاتها باعتبارها حرفا وضيعة. كما اكتسبت منطقة بشار شهرة كبيرة في صناعة ودباغة الجلود حيث ساهم اليهود في تطويرها كما وكيفا من خلال الدور الذي قاموا به سواء في توفير المادة الأولية التي كانت تُجلب من إقليم تافيلالت معقل هذه الحرفة، ومهدا الأول في الصحراء، أو من خلال تسويق المنتجات الجلدية إلى أوروبا.⁽¹²⁾

تبرز وثيقة مؤرخة في أواخر ربيع الثاني 1277هـ / موافق لـ 11 نوفمبر 1860م، وقد استخرجت نسخة منها في 01 رمضان 1278هـ / موافق لـ 02 مارس 1862م، صورة من اندماج اليهود في الحياة العامة للمسلمين في منطقة بشار، حيث تضمنت عقدا فيه اعتراف بدين تم بين أفراد من اليهود مصادق عليه من قبل قاضي وشهود من القنادسة، وهذا أهم ما جاء فيه:

"الحمد لله نسخة رسم احتيج لنقله خوف إتلافه أو تمزيقه نصه: الحمد لله أشهد على نفسه الذمّي إسحاق بن حليم الحزان القندوسي وابنه موشي أن بمالهما وذمتهما للذمّي موشي بن عليّ خمس عشرة ريال دُور فرنسية [فرنسية] وزيادة ستين ريالا دُور وذلك هو المال الذي أعطى سيدي محمد بن أحمد البدوي للذمّي المذكور خط يده عليه وذلك فعلم سيدي محمد المذكور لأجل التحليل بين اليهود فقط، ومهما استظهر عليه الذمّي المذكور بخطه فإنه لا عمل عليه ولا التفات إليه طال الزمان أو قصر إشهدا تاما عرفوا قدره.

شهد عليهم بذلك من أشهدوه به على أنفسهم وعرفهم وهم بأتمه وفي أواخر ربيع الثاني عام سبعة وسبعين بموحدة فيهما ومائتين وألف عبيد ربه تعالى :أحمد بن الحاج بن سيّمُو القندوسي مع علامته وشكله، وعبيد ربه تعالى محمد بن عبدالعزيز القندوسي مع علامته أيضا وشكله مع ثبوت قاضي القنادسة وما حولها لهما وشكله وهو أعزه الله الحبيب بن محمد ابن الحبيب القندوسي. انتهت وقابلة بأصلها فما تلتها حرفا بحرف من غير زيادة ولا نقصان وكتب عارف العدلين مع القاضي المذكور مع شكلهم ومعرف بهم ونسخ ما فيه أول رمضان المعظم عام ثمانية وسبعين بموحدة ومائتين وألف، عبيد ربه سبحانه محمد الماحي القندوسي. "(13).

الخاتمة:

عاش اليهود المهاجرون إلى منطقة بشار بعد النكبة التي حلّت بهم في إقليم توات في أمن وحرية، ووجدوا فيها التسامح والعدالة في ظل السيادة التي فرضتها الزاوية الزيانية على السكان. فتمتعوا تبعا لذلك بحقوقهم الدينية والمدنية، ونعموا بالسماح الإسلامي، بعد أن دخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم. كما وجد اليهود الوافدون من إقليم تافيلالت إلى منطقة بشار تسهيلات كبيرة وآفاق تجارية واسعة وواعدة، ساهمت في تغيير أوضاعهم العامة تغييرا جذريا.

ومن ثم نخلص إلى القول بأنّ هجرة اليهود إلى منطقة بشار لم يكن من أجل البحث عن وضعية تجارية أحسن فحسب، بل من أجل البحث كذلك على وضعية أمنية مستقرة تسهل اندماجهم السياسي والاجتماعي. وعلى الرغم من

التنوع العرقي والثقافي للمجموعة اليهودية المستقرة في منطقة بشار إلا أنّها شكّلت
كيانا موحدًا بفعل اندماج كل العناصر المهاجرة في المجتمع اليهودي، كما اتسمت
علاقاتهم بسكان المنطقة بالوفاق سواء كان ذلك على المستوى الأفراد والجماعات
أو على مستوى المؤسسات الدينية.

الجمهورية وحدها

جملة من اهل ديه اعلموا باننا اجمع العزرا
 وجميع ولد العزرا (٢٠) بنو ديه خلعت
 حتى من رحم الشيخ بيه هديا يا زيانا وقلنا
 وهو يهود يثاري عنده وتعد عليه بل الله
 فيقول الله ودعوت الشيخ بيه هديا يا زيانا
 تنبئه وكزاله اخوانه والصلوات
 ومن اصطفى مع عم وجه الشيخ فله بزره
 في كل يوم من عذرا ديه والاخر بيه هديا يا زيانا
 وجميع ولد الشيخ بيه هديا يا زيانا
 بن اب زيانا الفندي
 عوفن وقلنا اذكر ان الله
 سيرا بيه وولاه خيرا سيد
 الله في كل القلله كذا
 انشاء الله في سيرة هديا
 ادنايا بيه

Cour. (A).-Société de Géographie et D'Archéologie de la Province
D'Oran-1 trim. 1914 Tome XXXIV.PI.VII.

الرسالة مخطوطة لا تحمل تاريخ كتابتها وكتب على هامشها بالعبرانية ما نصه:
 "هذا الكاغط كتبلى سى محمد البرواز وسى المهدي كدباش أنا يهوديهم"

الهوامش:

- 1- Jacob Oliel, Les Juifs au Sahara, Le Touat au Moyen Age, CNRS Edition, Paris, 1994. P.61
- 2- اليعقوبي عبد الرحمان، فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان، مخطوط غير مصنف موجود في الخزانة القندوسية بشار، ص. 327.
- ترتبط هجرة اليهود إلى الصحراء عموما بسقوط الأندلس، وتأسيس محاكم التفتيش الأسبانية التي كانت تضطهد اليهود باعتبارهم مارقين من الديانة الكاثوليكية حيث عرفت بلاد المغرب خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين تدفق مجموعات من اليهود إلى تخوم الصحراء، واستوطنوا بالخصوص المراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال إفريقيا والسودان. وهو ما ينطبق على إقليم توات الذي عرف هجرات يهودية عديدة، وكان من أبرزها تلك التي جاءت اثر سقوط غرناطة سنة 1492. وكانت تمنطيط تضم العدد الأكبر من اليهود المهاجرين. حيث يذكر محمد الطيب بن عبد الرحيم بأنه كان بقصر تمنطيط ثلاثة مائة وستون صائغا يهوديا. ينظر: - محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص.14.
- 3- Jacob Oliel, Les Juifs de Colomb – Bechar, et Des Villages De La Saoura (1903 –1962) Orléans, 2003 .P.44.
- 4- Ibid.
- 5- De La Matinier, (H .M.P), Lacroix, (N), Documents Pour Servir a L’Etude Du Nord Oust Africain, T2, Gouvernement General De L Algérie, Alger, 1897. P.623.
- 6- Depont Octave, Xavier Cappolani, Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897. P.498. Voir aussi : - Camille Sabatier,

- Touat Sahara et Soudan, Etude Géographique, Economique et Militaire, Paris, 1891, P.188.
- 7- De la Martiniere, Lacroix, (N), TII, Op.cit. P.623.
- 8- Ceard, Gens et Choses de Colomb Bechar Archives Institut Pasteur D'Algérie, Tome 11, N°01, Alger, mars 1933.P.90.
- 9- De la Martiniere, TII, Op.cit. P.623.
- 10- اليعقوبي، المصدر السابق، ص ص 327-328.
- 11- Cour. (A).-Société de Géographie et D'Archéologie de la Province D'Oran-1 trim. 1914 Tome XXXIV.PI.VII.
- 12- A.N.O.M, Série 24H251 « Rapport Mensuel » Affaire Indignes, Lt coL Nabal, Comandant du Territoire, 17 juin 1945.
- 13- الوثيقة غير مصنفة، موجودة بالخزانة الزيانية القندوسية بالقنادسة، ولاية بشار، الجزائر.